

الجنان

مجلة علمية محكمة - فصلية

تصدر عن مركز البحث العلمي في الجامعة

العدد الثاني

الدكتور اسحق رحمانى

أستاذ مساعد بجامعة شيراز

دراسة أسس ومبادئ إنجاز المعجم التاريخى للغة العربية

الملخص:

لا يمكننا أن نقول أن تأليف معجم تاريخى أمر سهل، ولو تتوفر الميزانية المطلوبة لذلك. فقد استغرق إعداد معجم مثل أكسفورد وغيره من المعاجم عشرة عاماً. ولكن نحن في هذه الفترة الزمنية كيف يمكننا أن نجز هذا العمل الكبير في زمن قصير مع أن في أمامنا أنواع من المعوقات منها: قدم تاريخ نشأة اللغة العربية التي يرجع إلى زمن سيدنا نوح والحصول على المصادر الوثائق العلمية التي تثبت ذلك، وأيضاً قلة المتخصصين في الدراسات التأصيلية التي ترتبط بصناعة المعجم اللغوي. ولذلك يتطلب إعداد المدونة اللغوية النموذجية جهداً متواصلاً من قبل المتخصصين ودعم الحكومات العربية. وتهدف هذه المقالة إلى دراسة المبادئ الأساسية لوضع المعجم التاريخى المثالى للغة العربية بإذن الله تعالى.

الكلمات الرئيسية: المبادئ، الإنجاز، المعجم، التاريخى

المقدمة:

إن اللغة هي واسطة لنقل الأفكار والمكتسبات من الأسلاف إلى الأَخلاف. وهي فكر الأمة وهويتها وترتبط بين أفراد الأمة وتعبّر عن أحلامهم وآمالهم وعن أفراحهم وآلامهم، وهي الخزينة التي ترسم فيها الأمة عناصر ماضيها وتُسَطَّرُ بها حوادث تاريخها و ثمرات نتاجها في العلم، السياسة، الأدب، أو الفنّ وهي الواسطة التي يتمّ بها انتشار الأفكار والمشاعر فتنتقل من فرد إلى آخر ومن مجموعة إلى أخرى. فاللغة ليست مجموعة من الألفاظ والعبارات الجامدة، بل هي أحاسيس ومشاعر ونوازع كامنة، وأفكارٌ وميولٌ حيّة مطوّبة تقومُ بمثابة طابع قوميّ يشدُّ من روابط الاتحاد والألفة بين جميع أفرادها، فيشعُر هؤلاء وكأنّهم أسرة واحدة.

لأشكَّ أن اللغة هي أداة الاتصال والتفاهم بين أبناء البشر، وهي آية من آيات الله العظمى. يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِينَ وَالْوَنُكْرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١) لأنَّ الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي ينطقُ ويعبِّرُ عمَّا في ضميره.

إنَّ جميع الأمم المتقدِّمة، تهتمُّ بلغاتها، فتقيم جامعاتها ومؤسساتها العلمية لخدمتها، خاصة للبحوث والدراسات اللغوية. وقد حققت الدراسات المعجمية واللغوية الحديثة، في الغرب تقدماً كبيراً، باعتبارها علماً ترتبط بالعلوم الأخرى وتبحث عن قانون النشوء والارتقاء، وانحلال اللغات وتاريخ إيجادها. ونتيجة ذلك ظهرت المعاجم التاريخية، بحيث يُعنى بدراسة أصل الكلمات واشتقاقها وتطور دلالاتها.

مفهوم اللغة :

لقد لعبت اللغة دوراً هاماً في تحقيق المنزلة العليا للإنسان بين الكائنات الأخرى وإن الرموز اللغوية خدمت الإنسان والوجود الإنساني وأصبح الإنسان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بها في سير أمور حياته اليومية.

لقد انشغل العلماء قديماً وحديثاً بالبحث عن جوهر اللغة، وقديماً عرَّف ابن جني اللغة بقوله: «إنَّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»^(٢). وحديثاً فقد ذهب سوسير أن اللغة في أساسها مجموعة من الصور اللفظية التي تخزن في أذهان الأفراد كما يستخدمونها في التفاهم والاتصال السماعي^(٣). وعرَّفها أنيس فريجة بأنَّها ظاهرة سيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة، لصفة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختيار معاني مقرررة في الذهن. وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل^(٤).

هناك تعريفات كثيرة أوردها العلماء تكشف عن ارتباط علم اللغة بعلم عدة، أهمها: علم النفس، علم الاجتماع، علم المنطق، علم الفلسفة وعلم البيولوجيا، وتشير إلى أن كل عالم منهم كان ينظر إلى اللغة من زاوية العلم الذي يعمل في ميدانه.

وظيفة اللغة :

يرتبط الرمز اللغوي ببيئة محددة يطلق عليها الجماعة اللغوية، فعندما يسمع شخص لغة أجنبية لا يعرفها بل يسمعها أصواتاً غير متميزة، وليس لها تصنيف واضح عنده وليست لها دلالة رمزية، إنه يسمع سلسلة صوتية ليست لها وحدات متميزة ولكن ابن اللغة أو العارف بها لا يسمع هذه السلسلة الصوتية فحسب، بل يميِّز بين مكوناتها ويفهم محتواها الدلالي.

١- سورة الروم، الآية: ٢٢.

٢- ابن جني، الخصائص، دار الهدى، بيروت، ط/٢، ج/١ ص ٢٢

٣- محمود أبو زيد، اللغة في الثقافة والمجتمع، دار الكتاب، الزيتون، ص ٨٢

٤- أنيس فريجة، نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١٤

واللغة كاصطلاح بعد ما خرجت إلى سوق الحياة العامة أصبحت تعمل فيها كعنصر من عناصر التفاهم وسبيل النجاح في التعبير عما تجيش في صدور الناس.

ليس هناك أحد يعترض على تنوع وظائف اللغة في السلوك الإنساني وإن اختلف العلماء في ترتيب هذه الوظائف حسب أولويتها وأهميتها. لأن الوظيفة الأساسية للغة هي الاتصال أو النقل أو التعبير عن طريق الأصوات الكلامية وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات، أو الفكر بوجه عام^(١). ويأتي جون فيرث (John Rupert First) الذي يتكون محيط الكلام عنده من مجموعة العلاقات بين الأشخاص الذين يقومون بدور معين في المجتمع، ومن مجموعة الكلمات التي ينطقون بها والأحداث التي يرتبطون بها. واللغة عنده ليست إشارات اصطلاحية وذلك لأن دلالات اللغة تحدّد من خلال الاستعمالات المتنوعة في المجتمع^(٢) يرى أندرية مارتيّنة (Andre Martinet) أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه، فاللغة مؤسسة إنسانية يتردّ كيانها إلى المجتمع الذي يتكلمها وهي الوسيلة التي تتيح للإنسان بصورة أساسية القيام بعملية التواصل بينه وبين أفراد بيئته^(٣).

وكذلك يقول جون ديوي: إنّ اللغة لا توجد إلا عندما يستمع إليها ويتحدث بها، فالسامع شريك لا غنى عنه في هذه العملية المؤلفة من المتحدث وموضوع القول ومن يتحدث إليه^(٤).

ومن هذا العرض يمكن القول بأن معظم هؤلاء العلماء قد أجمعوا على أن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل بين أفراد مجتمع ما وإن كانت هذه الآراء في تطورها في فهم هذه الوظيفة تتفاوت قليلاً بعضها عن بعض.

فقد حاول هاليداي (Halliday)^(٥) تقديم حصر بأهم وظائف اللغة في المواقف التي يحتاج الفرد إلى استعمال اللغة للاتصال بها، على ما يلي:

١- الوظيفة النفعية: (Instrumental Function) ، وهذه الوظيفة هي التي يطلق عليها «أنا أريد» فاللغة تسمح لمستخدميها منذ طفولتهم المبكرة أن يُشبعوا حاجاتهم وأن يعبروا عن رغباتهم.

٢- الوظيفة التنظيمية: (Regulatory Function)، وهي تعرف باسم وظيفة «افعل كذا، ولا تفعل كذا» فمن خلال اللغة يستطيع الفرد أن يتحكم في سلوك الآخرين، لتنفيذ المطالب والنهي، وكذا اللافتات التي نقرؤها، وما تحمل من توجيهات وإرشادات.

١- محمود السعران، اللغة والمجتمع، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، ص ١٢

٢- ميشال زكريا، الأنسنية المبادئ والإعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط/٢، ١٩٨٣م، ص ٢٨٢

٣- ميشال زكريا، قراءات تمهيدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط/٢، ١٩٨٥م، ص ٢١٧

٤- جون ديوي، قاموس جون ديوي للتربية، ترجمة محمد علي العريان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٧٨

٥- رشدي أحمد طعيمة، المدخل الاتصالي في تعليم اللغة الأجنبية، جامعة السلطان قابوس، مسقط، ١٩٩٧م، ص ٦

٣- الوظيفة التفاعلية: (Interactional Function)، وهي وظيفة «أنا وأنت» حيث تستخدم اللغة التفاعل مع الآخرين في العالم الاجتماعي باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي لا يستطيع الفكك من أسر جماعته، فنستخدم اللغة في المناسبات، والاحترام، والتأدب مع الآخرين.

٤- الوظيفة الشخصية: (Personal Function)، بمعنى أن الإنسان يستطيع من خلال اللغة أن يعبر عن مشاعره واتجاهاته نحو موضوعات كثيرة، وتلخص في عبارة: إنني قادم.

٥- الوظيفة الاستكشافية: ويقصد بها استخدام اللغة من أجل الاستفسار عن أسباب الظواهر والرغبة في التعلم منها، فبعد أن يبدأ الفرد في تميز ذاته عن البيئة المحيطة به يستخدم اللغة لاستكشاف وفهم هذه الطبيعة حتى يستكمل معلومات عن هذه البيئة، ولخصت في عبارة: أخبرني عن السبب.

٦. الوظيفة التخيلية: (Imaginative Function)، ويقصد بها استخدام اللغة من أجل التعبير عن تخيلات وتصورات من إبداع الفرد، وتلخص عند هاليداي في عبارة: دعنا نتظاهر أو ندعي.

٧- الوظيفة الإخبارية الإعلامية: (Informative Function) وبها يستطيع الفرد من خلال اللغة نقل معلومات جديدة ومتنوعة.

يتضح مما ذكرنا من وظائف اللغة أنها تستخدم في أغراض عديدة تشمل على أشكال من التفاعل مع الآخرين.

طبيعة اللغة العربية وخصائصها :

اللغة العربية لغة تتمتع بمكانة رفيعة بين اللغات الحيّة في العصر الحاضر، كما كانت قديماً تحتل مكانة الصدارة بين اللغات المشهورة ولهذه اللغة خصائص تميزها، وهي:

١- الاشتقاقية: إن الأصل الواحد في اللغة العربية تتوارد عليه مئات المعاني بدون أن يقتضي ذلك أكثر من تغيرات في حركات أصواتها الأصلية نفسها مع زيادة بعض الأصوات عليها أو بدون زيادة، وإن كل ذلك يجري وفق قواعد مضبوطة دقيقة نادرة الشذوذ. ومن الطبيعي أن وجود عدّة كلمات ذات دلالات مختلفة في أسرة جذرية واحدة تلعب دوراً إيجابياً في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

٢- القياسية: ومن أهميتها أن الطالب بعد فهم القاعدة يستطيع أن يقيس على سائرهما، مثلاً: لو عرف الطالب بأن اسم المفعول الثلاثي على وزن مفعول فلا تبقى أمامه مشكلة في صياغة اسم المفعول لأي فعل ثلاثي. وهذه الخاصية من أهم الأسس اللغوية التي يجب أن تراعى عند بناء منهج اللغة العربية.

٣- الخاصية الإعرابية: الظاهرة الإعرابية تأتي أهميتها بحيث تفرق بين المعاني، ويقول ابن

ولكن هذه المعاني لا تتفق مع معنى (المعجم) الذي نحن بصدد الحديث عنه - كما سيأتي:

ب - تعريف المعجم في الاصطلاح: وهو مرجع يشتمل على كلمات لغة ما ، أو مصطلحات علم ما ، مرتبة على نمط معين ، مشروحة شرحاً يزيل إبهامها ، ومضافاً إليها ما يناسبها من المعلومات التي تفيد الباحث ، وتعين الدارس على الوصول إلى مراده مع تعريف كل كلمة أو ذكر مرادفها أو نظيرها في لغة أخرى ، أو بيان اشتقاقها أو استعمالها أو معانيها المتعددة أو تاريخها ، وقد يكون المعجم أحادي اللغة أو ثنائية اللغة أو متعدد اللغات ، وقد يكون عاماً أو متخصصاً ، كما قد يكون معجم مترادفات أو ترجمان أو تعاريف ، وقد يكون معجماً هجائياً مرتباً حسب حروف الهجاء أو مخارج الحروف ، أو معنوياً مرتباً حسب المعاني^(١) .

ويمكن تعريف المعجم بأنه كتاب يضم أكبر عدد من مفردات اللغة مقرونة بشرحها وتفسير معانيها بصورة عامة ، وعلى أن تكون مواد مرتبة ترتيباً خاصاً إما على حروف الهجاء أو بناء على الموضوع ، والمعجم هو ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف المعجم^(٢) . والمعجم الكامل هو الذي يضم كل كلمة في اللغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نطقها وشواهد تبين مواضع استعمالها^(٣) .

إذن المعجم وسيلة لغوية تتعلق بجمع اللغة ووضعها ، ويسعى إلى وضع أسس تتصل باللغة ومفرداتها ومفاهيمها التي ترتبط بالعلوم الإنسانية المختلفة وكتب الأدب والنثر وعلم الدلالة... الخ من العلوم الأخرى.

ج - التوفيق بين المعنيين: اللغوي، والاصطلاحي:

كيف يمكن التوفيق بين المعنى الأصلي اللغوي وبين المعنى الاصطلاحي؟

والإجابة عن ذلك أن يقال: إن زيادة بعض الحروف في الكلمة قد تسبب تغييراً في المعنى ، وقد خصص لذلك علماء الصرف باباً سموه (معاني صيغ الزوائد) .

بل إن بعض أنواع الزيادة قد تقلب المعنى إلى ضده ، كتضعيف عين الكلمة وكزيادة الهمزة في أول الكلمة؛ لتدل على معنى الإزالة ، كما يقال مثلاً: أشكيت فلاناً أي أزلت شكواه . وكذلك قسط بمعنى جار ، وأقسط: بمعنى عدل . ويقال: أعجمت الكتاب أي أزلت عجمته بنقطه أو شكّله كما يقال: عجمت .

وقد وضح ذلك ابن جني حين قال: ثم إنهم قالوا: أعجمت الكتاب: إذا بينته وأوضحته؛ فهو - إذاً - لسلب معنى الاستبهام لا إثباته^(٤) .

١- رياض زكي قاسم ، المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج والتطبيق ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ١٩٨٧م ، ص ١٩

٢- محمد رشادي الحمزاوي ، من قضايا المعجم العربي حديثاً ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٥١

٣- إبراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث ، ج ١ ، ص ٥٩٢

٤- ١٦- رياض زكي قاسم ، المعجم العربي بحوث في المادة والمنهج ، م.س. ص ٢

فمعنى المعجم - إذاً - هو الكتاب الذي أزيلت العجمة فيه، وذهب الخفاء منه.

وحروف المعجم - كما حكى ابن فارس عن الخليل - «هي الحروف المقطعة؛ لأنها أعجمية»^(١)

ويوضح ابن فارس هذا بقوله: «وأظن أن الخليل أراد بالأعجمية أنها ما دامت مقطعة غير مؤلفة تأليف الكلام المفهوم فهي أعجمية لا تدل على شيء؛ فإن كان هذا أراد فله وجه، وإلا فما أدري أي شيء أراد بالأعجمية»^(٢)

إطلاق كلمة المعجم تدل على ما تقدم ذكره من أنه كتاب يضم ألفاظ اللغة ويشرح معانيها الخ... وإنما هو المعنى الغالب عليه. وإلا فإن المؤرخين من علماء علم الحديث قد سبقوا علماء اللغة في هذا الإطلاق؛ فسموا كتبهم معاجم.

فهذا أحمد بن علي بن المثنى (٢١٠-٢٠٧) يُطَلِّقُ على كتاب وضعه لمعرفة الصحابة: (معجم الصحابة).

وكذلك فعل عبد الله بن عبدالعزيز البغوي (ت ٢١٤) المحدث حين أطلق على كتابه (المعجم الكبير) و (المعجم الصغير).

ولذلك يحسن التقييد عند البحث فيقال: المعاجم اللغوية.

أنواع المعاجم اللغوية من حيث الوضع:

هناك نوعان من المعاجم اللغوية و لا بد من التفریق بينهما:

النوع الأول: نوع يشرح معاني الألفاظ، ويبين أصلها، وما اشتقت منه، معتمداً في ذلك صاحبها على نظام معين في ترتيب المواد اللغوية؛ بحيث يمكنه جمع اللغة بطريقة حاصرة سواء على نظام التقلبات أم القافية أم الأبجدية. ويطلق على هذا النوع من المعاجم اسم (المعاجم المجنسة) أو (معاجم الألفاظ).

وقد مر تأليف هذه المعاجم بمرحلتين:

الأولى: جمع الكلمات؛ بحيث العالم يرحل إلى البادية؛ فيسمع كلمة، مثلاً كلمة في الأنواء، وثانية في المطر، وثالثة في الغابات والشجر وهكذا. . .

الثانية: جمع الكلمات بطريقة حاصرة لكل ألفاظ اللغة، وهذا هو المقصود الآن من المعاجم اللغوية.

النوع الثاني: يهدف إلى جمع الألفاظ الموضوعية لمختلف المعاني:

١- ابن فارس، معجم المقاييس، م.س.ص.٤/١٩٥

٢- ١٨- م.س.ص.٤/١٩٥

وهذه يرجع إليها من يعرف المعنى، ويرغب في معرفة اللفظ الموضوع له. ويُطَلَق على هذا النوع بعضُ الباحثين: (المعاجم الميبوبة) أو (معاجم المعاني) أو (معاجم الموضوعات).

ومن أبرز الكتب التي ألفت في ذلك كتاب (غريب المصنف) لأبي عبيد ت ٢٢٢هـ، و (الألفاظ) لابن السكيت ت ٢٤٤هـ، و (الألفاظ الكتابية) للهمذاني ت ٢٢٧هـ، و (مبادئ اللغة) للإسكافي ت ٤٢١هـ، و (فقه اللغة) للثعالبي ت ٤٢٩هـ، و (المخصص) لابن سيده ت ٤٥٨هـ.^(١)

المعجم التاريخي:

يقصد بالمعجم التاريخي، ذلك المعجم الذي يقوم على تتبع المعاني أو المفاهيم التي أعطيت للألفاظ أو المصطلحات، عبر تاريخها الاستعمالي^(٢). المعجم العام أو العادي هو كتاب يحتوي على كلمات منتقاة من اللغة، تُرتب عادة ترتيباً هجائياً، مع معلومات دلالية ونحوية عنها. أما المعجم التاريخي فيزيد على ذلك بأن يؤرخ لظهور كل كلمة في اللغة ويتبع ما طرأ على دلالاتها من تطور وعلى تلفظها من تغير، كما يبين أصل الكلمة وما إذا كانت قد اقتُرِضت من لغة أخرى مباشرة أو عبر لغات وسيطة. ويستند المعجم في تقديم تلك المعلومات إلى النصوص المتوفرة سواء أكانت تلك النصوص مطبوعة أو مخطوطة أو منقوشة على أوراق البردي أو على النقود أو غيرها. فالمعجم التاريخي يرتب معاني الكلمة ترتيباً تاريخياً، فيورد المعنى الأقدم أولاً ويضع بعده سنة ظهوره مع شاهد أو اقتباس من النصوص المدونة، ثم يأتي بالمعنى الثاني الذي استُعملت فيه تلك الكلمة وسنة ظهوره وجملة مقتبسة وردت فيها تلك الكلمة بذلك المعنى وهكذا.

تعتبر المعجمات التاريخية للغات، مظهراً لتقدم الحضاري والثقافي واللغوي، بحيث تسجل لنا تطور لغة أمة الناطقة بهذه اللغة على مر التاريخ، على أنه يبين نمو اللغة من النواحي المعنى والدلالة والسياق، ويعكس الأطوار التاريخية التي تمرّ بها الأمم. ولذلك كان تاريخ اللغة، هو التاريخ الفكري والثقافي بالمفهوم العام للأمم والشعوب التي تنطق بتلك اللغة^(٣).

وَوَضَّعُ المعجمات التاريخية للغات، في الجملة، يأتي على رأس مراحل النضج والتوسُّع والامتداد، ويقوم على أساس من الذخيرة المعجمية اللغوية، التي تتجمّع من الكتب التي تُعنى بشرح معاني الكلمة، ومرادفاتها، وأبنياتها الصرفية وتراكيبها النحوية، وأصولها، واستعمالاتها، وغريبها، وشواهداها. ذلك أن التأريخ للغة من اللغات هو حصيلة تراكم الثروة اللغوية، والتصرف فيها واستثمارها بمنهج علمي. وهو عملية لا تتم على النحو الذي يفى بالقصد ويحقق الهدف، إلا إذا توافرت شروط موضوعية يأتي في المقدمة منها، تطوُّر المجتمع علمياً وثقافياً. ولذلك اقترن

١- محمد بن ابراهيم الحمد، دراسات في المعاجم العربية، <http://www.toislam.net/files.asp?order=3&num=2540> &per=1229&kk

٢- محمد البوشيخي، مفهوم المعجم التاريخي للمصطلحات القرآنية <http://alminbar.al-islam.com/images/books/350.doc>

٣- علي القاسمي، المعجم التاريخي للغة العربية، <http://www.alfawanis.com/kotab/articles.php?id>

وضع المعجم التاريخي للغة بالتطوّر الحضاري الذي يتحقّق في بيئة هذه اللغة، بحيث كان ظهور المعجم التاريخي للغة ما، تعبيراً عن بزوغ عصر النهضة، كما هو واضح تماماً في تاريخ أوروبا المعاصر، حيث صدر معجم أكاديمية كروسا الإيطالية في عام ١٦١٢م، وصدر معجم الأكاديمية الفرنسية بين عامي ١٦٢٨م و١٦٩٤م، وصدر معجم وبستر الأمريكي في عام ١٨٢٨م. وهذه المراحل هي التي كانت منطلقاً للنهضة في تلك البلدان^(١).

مراحل تطور معجم اللغة العربية :

وفي هنا نتناول المراحل المختلفة التي مر بها المعجم العربي عبر القرون.

المرحلة الأولى : الترتيب الصوتي ونظام التقلبات الخليليان.

وقد خطا خليل ابن احمد الفراهيدي خطوة الإبداع في مجال العمل اللغوي في مسار وصف جوانب حياة اللغة في تصنيفه المعجمي في نهاية القرن الثاني للهجرة (٧١٨-٧٨٦ م) واستحق بذلك أن يكون أول من أنشأ علم اللغة. الأسس والإطار العام التي اتخذها الخليل بن أحمد في معجمه لم تتجاوزها التصانيف المعجمية العربية فيما بعد. نظم معجمه وفق أسس مرتبة ومعينة جمع فيه كل مفردات اللغة، ساعدته في ذلك عقليته الرياضية حيث استخدم في وضع كتابه (العين) إحدى السبل الرياضية التي مكنته من جمع كل مفردات اللغة وهي طريقة التقلبات الصوتية ويتم ذلك عن طريق تقليب حروف الكلمة الواحدة للحصول على الكلمات بالشرح والتحليل.

ورتب الخليل مادته اللغوية في كتاب (العين) حسب المخارج الصوتية للحروف من الحلق إلى الخارج على نحو التالي :

ع ح هـ خ غ - ق ك - ج ش ض - ط د ت - ظ ذ ث - ر ل ن - ف ب م - و ا ي^(٢).

إن ترتيب الخليل للحروف حسب مخارجها، ونظامه في التقلبات قد أصبحا مرحلة مميزة من مراحل التأليف المعجمي، واتباع هذا الطريق من بعده تلامذته، منهم:

- ١- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهر الهروي (٨٩٥-٩٨١) في كتابه (تهذيب اللغة).
- ٢- اسماعيل بن القاسم بن هارون القالي، البغدادى (٩٠١-٩٦٢ م) في كتابه (البارع).
- ٣- أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأندلسي (٣٩٤-٤٥٨ هـ) في كتابه (المحكم).
- ٤- الزبيدي في كتابه (مختصر العين)^(٣).

١- المعجم التاريخي للغة العربية في ضوء متغيّرات الألفية، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو. ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م

٢- إميل يعقوب، المعجم اللغوية العربية بداءتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ص ٢٩

٣- م.س.ص ٤٤-٤٥

المرحلة الثانية : النظام الألفبائي الخاص.

يظهر أن ابن دريد قد أدرك، من ناحية، صعوبة البحث في معجم العين عن معاني الكلمات التي يستغلق فهمها على الباحث، كما شعر، من ناحية ثانية، أن ترتيب مواد المعجم حسب النظام الألفبائي يخفف كثيراً من هذه الصعوبة نظراً لسعة انتشاره. ورأى أيضاً أن نظام التقلبيات، الذي ابتدعه الخليل، أساس سليم لاستيعاب معظم مواد اللغة العربية، إذ لم ينقل جميعها. فأحب أن يجمع بين ترتيب الألفباء العادي وبين نظام التقلبيات الخليلي، فوضع معجمه (الجمهرة) على هذا الأساس^(١). ويبدأ النظام الألفبائي الخاص بالحرف مع ما يليه في الألفباء لا مع الهمزة فالباء فالتاء، فإذا أخذنا باب الحاء - مثلاً - فإنه يبدأ بالحاء والهاء، ثم الحاء والدال، فالحاء والدال، وهكذا إلى الحاء والياء، ثم يعود إلى الحاء والهمزة، ثم الحاء والباء... وهكذا.

وقد شكل هذا المعجم مرحلة متقدمة في فن ترتيب مواد المعجم، وسُميت بمرحلة النظام الألفبائي الخاصة.

ومن وافق هذه المدرسة، هما:

- ١- أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد (٨٣٨-٩٣٣ م) في كتابه الجمهرة.
- ٢- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (٩٤١-١٠٠٤) في كتابه المقاييس.

المرحلة الثالثة : الترتيب بحسب الحرف الأخير.

أول من ابتدع هذا النظام إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت ٣٧٠هـ/٩٦١م)، خال الجوهري صاحب الصحاح، ولكن الباحثين يجمعون على أن الجوهري هو المبتدع لهذا النظام. وهذا التنظيم متبع في كثير من المعاجم وأهمها:

- ١- الصحاح للإسماعيل بن حماد الجوهري (توفي حوالي ٤٠٠هـ).
- ٢- لسان العرب لمحمد مكرم بن علي بن منظور الأفرقي (١٢٣٢-١٣١١ م).
- ٣- القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب، أبوظاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزبادي (١٣٢٩-١٤١٥ م).

المرحلة الرابعة : الترتيب الألفبائي حسب أوائل الأصول.

اعتمد هذا النظام على الترتيب الألفبائي حسب أوائل أصول الكلمات، و يعد أبو عمرو الشيباني والبرمكي صاحباً الفضل في اكتشاف هذا النظام، وتوالت بعدهما الكثير من المعاجم مثل المصباح المنير للفيومي (ت ٧٧٠هـ) وغيره من معاجم المصطلحات والشعراء وكتب عن الطبقات. أما المعجم الحديث مثل «معجم المحيط» لبطرس السستاني، و «البستان» و «فاكهة

البستان» لعبد الله البستان، و «أقرب الموارد» لسعيد الشرتوني، والمنجد للويس المعلوف، و«متن اللغة» لأحمد رضاء إضافة إلى معاجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة «المعجم الكبير» و «المعجم الوسيط» فكلها تتبع هذا النظام اللفبائي.

المرحلة الخامسة : الترتيب النطقي (الترتيب الفرنجي).

لاشك في أن مراعاة أصول الكلمات، في ترتيب مواد المعجم، فيه من الصعوبة، ويظهر أن بعض اللغويين العرب المحدثين قد أدركوا هذه الصعوبة، وبخاصة بعد اطلاعهم على المعاجم الأجنبية التي ترتب كلماتها حسب نطقها، لا حسب جذورها، فرغبوا في وضع معجم ميسرة الشرح والتبويب، أخذين بالترتيب (الفرنجي) لكلمات المعجم، أي حسب نطقها لا حسب جذورها. ومن أشهر هذه المعاجم هي :

١- «المرجع» لشيخ عبد الله العلايلي، ولد في بيروت في السنة ١٩١٤.

٢- «الرائد» لجبران مسعود ١٩٣٠ أحد أساتذة اللغة العربية المشهورة في بيروت.

نجد أن المعاجم قد صنفت إلى أصناف و كل صنف خاص بنوع من المعاجم سواء كانت عامة أو خاصة وحدد السبب الذي من أجله تم تصنيفه وهي:

١- المعاجم اللغوية: تهتم هذه المعاجم بشرح الفاظ اللغة عامة وتحدد كيفية استعمالها وترتيبها يتم بطريقة معينة وهي أغلب المعاجم الموجودة إذ أنه لم يخرج أي منها من هذا النوع ومن هذا المعاجم القاموس المحيط للفيروز آبادي، والصحاح للجوهري حيث تهتم هذه الكتب باللغة عامة.

٢- معاجم الترجمة: وتعرف بالمعاجم أو الثنائية والثلاثية اللغة وهي أقدم أنواع المعاجم في العالم. وتقوم هذه المعاجم بشرح لغة أجنبية بلغة محلية بعد جمعها ويلحق بها المعاجم متعددة اللغات وهي التي تعطي المعنى الواحد بعدة اللغات في آن واحد، ويهدف هذا النوع من المعاجم إلى تسهيل تعلم الكلام والكتابة باللغات الأجنبية.

٣- المعجم الموضوعية: هذه المعاجم تهتم بجمع المادة وفق معانيها أو موضوعاتها حيث يتم ترتيب المواد في المعجم الواحد حسب الموضوع ولا يدخل الموضوع في الآخر، وخير مثال في هذا النوع من المعاجم كتاب (المخصص) لابن سيدة الأندلسي.

٤- المعاجم الاشتقاقية: أما هذا النوع من المعاجم فكل اهتمامه ينصب في البحث عن أصول الكلمات أو ألفاظ اللغة فتدلنا على أصل الكلمة وتحديد الأسرة التي تنتمي إليها الكلمة أم هي سامية أم هندية أو أوربية أو عربية.

٥- المعاجم المتخصصة: تهتم هذه المعاجم بموضوع معين أو علم من العلوم والمصطلحات، ثم تشرح هذه المصطلحات أو الألفاظ حسب استعمال المتخصصين في هذا العلم ومن هذه

المعاجم (التذكرة) لداود الأنطاكي وكتاب (حياة الحيوان) للدميري.

٦- دوائر المعارف: هي نوع من أنواع المعاجم ولكنها تختلف عنها من حيث أنها سجل للعلوم والفنون وغيرها من المظاهر والنشاط العقلي عند الإنسان وهي المراجع للتعريف بالإعلام والشعوب والبلدان والوقائع الحربية وهناك دوائر المعارف المتخصصة كدوائر المعارف الإسلامية ودوائر المعارف الطبية.

٧- المعجم المصوّر: مما لا شك فيه أن الصور تساعد على توضيح معاني الحسيات التي تقع عليها العين. واستخدام الصور في مجال المعاجم ظهر حديثاً، مع ظهور المنجد. والمعجم المصور هو الذي يثبت صور الكل التي يتضمنها. وأول من وضع معجماً بهذا النوع العالم الألماني (دودون) الذي لاحظ أن الألفاظ في اللغة تكثر في الحسيات لا في المجردات.

٨- المعجم التاريخي: تهتم هذه المعاجم بأصل الكلمة لا الكلمة نفسها ثم تتبع مراحل الكلمة ومعناها عبر الأزمنة والعصور مثل كلمة (المربي) ماذا كانت تعني في الجاهلية، وكيف تطور معناها حتى اليوم وذلك عبر العصور المختلفة.

بهذا قد توصلنا إلى أن المعاجم لا تصنف إلا لتحديد معاني الموضوع أو علم أو هدف خاص لا يخرج عنه المعجم، ولكن معظم معاجم اللغة العربية كانت من المعاجم اللغوية ولم يخرج عنها سواء الرسائل الصغيرة أو الكتب ذات الموضوعات مثل (الغريب في ألفاظ القرآن) وكتب الأصمعي الإبل- الخيل- المطر وغيرها.

ولم تظهر بقية المعجم إلا في عصر الحديث بعد تشعب العلوم والاختصاصات المختلفة التي دفعت العلماء للوقوف على المعاني والمفاهيم الخاصة بكل موضوع.

كما أشرنا بأن صناعة المعجم العربي هي أقدم الصناعات المعجمية في اللغات الحية وأغزرها كماً وأغناها نوعاً، مع ذلك فإن اللغة العربية لا توفق على صناعة المعجم التاريخي حتى الآن.

أهمية المعجم التاريخي:

سيساعد هذا المعجم التاريخي على دراسة اللغة العربية دراسة علمية، ووصفها وصفاً لسانياً دقيقاً، لأنه سيؤرخ للتغيرات التي لحقت بأصوات اللغة وأبنياتها الصرفية وتراكيبها النحوية بالإضافة إلى التطور الدلالي الذي أصابها.

المعجم التاريخي المقترح للغة العربية:

فقد عرف دوزي المعجم التاريخي للغة العربية، أنه معجم يعرفنا بوضوح ودقة- كلما عدنا إليه- المعنى الدقيق لأي لفظ في أصل استعماله، ومختلف الدلالات التي طرأت عليه في جزيرة العرب وبلاد فارس والشام... إلخ، أي في كل الأمصار التي كونت - على حد تعبيره - تلك الإمبراطورية

الشاسعة، التي امتدت ما بين بلاد الهند والحدود الفرنسية. هو معجم يرسم لنا بالاعتماد على الشواهد والنصوص اعتماداً مستمراً، وتاريخ كل لفظ وكل عبارة. ويميز بين المعاني الخاصة بكل لفظ في مصر عربي ما، والمعاني التي كان يفيدها في مصر آخر؛ بين مدلول كل لفظ عند الشعراء، ومدلوله عند الناثرين. ثم هو معجم يشتمل على كل مصطلحات العلوم والفنون مفسرة تفسيراً منهجياً في الواقع يقوم بدلالة الألفاظ والتراكيب، متتبعا إياها في مختلف العصور والبيئات.

الجهود المبذولة :

المعجم التاريخي يؤرخ لألفاظ اللغة و تاريخ نشأتها ويشير على ما حدث للغة من التطور و التغيير في أشكالها ومحتوياتها الدلالي عبر العصور وقد تحدث عن هذا الموضوع ابن جني في كتابه الخصائص وغيره من كتبه، ولكن حتى الآن ما نجح علماء اللغة العربية في تصنيف كتاب مستقل بحيث يجيب بهذه المسألة، ولكن في السنوات الأخيرة شعر علماء اللغة العربية بأنهم في حاجة إلى معجم بما يشبه فيما ألف في مجال اللغات الأخرى، مثل الإنجليزية وغيرها من اللغات الحية، وقام مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، إلى البحث في هذا الموضوع، وقام بتشكيل لجنة للمعجم التاريخي و للتخطيط والعمل على إنجازه.

ونجد المحاولات الجادة من قبل بعض علماء اللغة العربية لإعداد المعجم التاريخي في شكل المؤتمرات كما أقيمت في مدينة الشارقة برعاية حاكمها.

وأيضاً قد قام معهد أبحاث الاستشراق الألماني الذي كان يديره المستشرق أوغست فيشر (١٨٦٥ - ١٩٤٩)، بهذه المحاولة، لتأليف معجم عربي تاريخي بدعم من مؤتمر المستشرقين والمجمع السكسوني. ولكن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أدت إلى توقف المشروع، ثم استأنف العمل عام ١٩٢٣. وحين أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٢٢، قرر تبني مشروع فيشر وإماده بالدعم اللازم والمساعدتين المتخصصين، فانتقل فيشر إلى القاهرة، ولكن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) اضطر للعودة إلى ألمانيا حيث أقعده المرض وعاجلته المنية. وضاعت المواد التي أعدها فيشر، ما عدا المقدمة وأجزاء من حرف الألف.

وعندما تأسست جمعية المعجمية العربية بتونس في أواسط الثمانينات، اهتمت بموضوع المعجم التاريخي فخصته بندوتها العلمية الدولية الثانية عام ١٩٨٩، وأنشئ عام ١٩٩٠ مشروع (المعجم العربي التاريخي) بتمويل من الحكومة التونسية، ولكن هذا المشروع قد توقف، ثم أعيد العمل فيه عام ١٩٩٦. ولعل سبب تعثره يعود إلى عدم تفرغ القائمين على المشروع. ولهذا فإن اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية قرر إنشاء مؤسسة مستقلة تتفرغ لتأليف المعجم التاريخي للغة العربية^(١).

١- علي القاسمي، المعجم التاريخي للغة العربية، <http://www.alfawanis.com/kotab/articles.php?id=11>

منهجية تأليف المعجم التاريخي:

كان إعداد المعاجم التاريخية يعتمد على جمع الشواهد السياقية الكثيرة جمعاً يدوياً من مختلف عصور اللغة. وكان هذا العمل يتطلب حشداً من المحررين والمراسلين والمتبرعين ويستغرق سنوات طويلة. أما اليوم فقد أصبحت العملية أيسر بفضل الحاسوب وقواعد المعلومات وبنوك الكلمات. إذ يمكن إنشاء مدونة لغوية تتألف من نصوص كثيرة تضم ملايين الجمل التي تنتمي إلى فترات اللغة المتباينة، والأقطار المختلفة، والمجالات المعرفية المتنوعة. ثم يجري البحث عن الألفاظ لفظاً لفظاً، فيزدون الحاسوب بآلاف العبارات والجمل التي يرد فيها اللفظ المطلوب مرتبة ترتيباً تاريخياً، مع تاريخ كل جملة والمكان الذي كتبت فيه والمجال المعرفي الذي تنتمي إليه. فيتولى اللغويون والمعجميون استخلاص دلالات اللفظ المختلفة من السياقات التي وردت فيها. ويُعزز كل ذلك بدراسات تأصيلية عن أصل اللفظ وتحديد اللغة التي اقتُرص منها^(١). وعلى الرغم توفر البرامج المتطورة فإن تأليف معجم تاريخي يتطلب سنوات طويلة.

ومن أهم الأسس التي ينبغي أن تراعى لعمل هذا «المعجم التاريخي» ما يأتي:

١- يجب أن يحتوي المعجم التاريخي على كل كلمة وردت في أدبيات اللغة، مدعومة بالشرح والتوضيح.

٢- المبدأ التاريخي هو الأساس في معالجة الكلمات.

٣- هوية اللفظة وكتابة أصولها، أصواتها، ونطقها، بالحروف الهجائية العربية، وفق قواعد محددة، سواء أكانت الكلمة: كنعانية أم آرامية أم عبرية، أم حبشية أم أمازيغية أم يونانية أم لاتينية أم فارسية أم هندية، أم من اللغات الحديثة في العصر الحاضر، لا سيما المصطلحات، والاتفاق على الحروف التي تكتب بها الأصول القديمة والحديثة.

٤- الدلالة النحوية لكل كلمة.

٥- يجري الترتيب وفق قاعدة محددة: الفصيح، الشائع، المهجور، المهمل، الغريب، المعرب.

٦- الصرف ويشمل الاشتقاق والصورة التاريخية للكلمة.

٧- شرح معاني المفردات بوضعها في سياقات متعددة، فهي المصدر الأساس الذي يأخذ بأيدينا إلى الكشف عن معنى لفظة نجهل تفسيرها، أو نريد معرفة معناها صحيحاً دقيقاً لتعرف استعمالاتها، ونهتدي إلى السياق المناسب الذي وردت فيه.

٨- بيان ضبط مختلف الكلمات التي لا يظهر لنا وجه الصواب فيها، ولا سيما الأسماء الجامدة وكثيراً من أسماء الأعلام والبلدان والأفعال الثلاثية لمعرفة حركة العين في ماضيه أو

١- م.س. <http://www.alfawanis.com/kotab/articles.php?id=11>

مضارعه، أو معرفة مصدره.

٩- التنبية برموز معينة على الفصحى والمغرب والدخيل والمولد من الألفاظ.

١٠- بيان بعض مصطلحات العلوم والفنون.

مراحل إنجاز المعجم التاريخي:

١- مرحلة الجمع والتوثيق: وهي أطول مرحلة وأشقها وأهمها على الإطلاق؛ فيها يجب أن تقرأ جميع أصناف المصادر المتقدمة، وتستخلص منها جميع التعاريف والشروح، موثقة بالنسبة إلى مصادرها، مضبوطة البيانات، موثقة المتن، صحيحة العبارة، منظمة تنظيمًا يجعل الاستفادة منها يتلو ميسرة.

٢- مرحلة المراجعة والتدقيق: وهي مرحلة تكميل الناقص، وضبط المختل، وإلغاء الحشو، وتعريف الغامض، والتأكد من الموجود، وإضافة المفقود. في المصادر والنصوص، والبيانات، والتنظيم وغير ذلك.

٣- مرحلة التأليف والتنسيق: وفيها يصنف ما روجع ودقق، وتصنيفات جزئية مختلفة، ثم يؤلف من تلك الأصناف الجزئية أشكال من المركبات ثم ينسق من تلك المركبات المعجم الجامع، مرتبًا الترتيب المشار إليه أعلاه، مكشفاً التكشيف الذي ينبغي له^(١).

التوصيات:

- وضع اللجان الأدبية والتاريخية والأصولية موجهة للجامعيين في عملية جمع النصوص والاختبارات والشواهد.

- تصنيف معجم تاريخي عربي يتطلب حشد عدد من المتخصصين باللغات العربية القديمة كالسومرية والبابلية والآشورية والآرامية والمصرية القديمة وكذلك باللغات التي تفاعلت معها العربية واقتضت منها كاليونانية والفارسية والتركية.

- تأليف المعجم التاريخي العربي يتطلب مؤسسة متكاملة تتكبد على هذا العمل، ولا يكفي جهود لغوي أو معجمي واحد بمفرده.

١- محمد البوشيخي، مفهوم المعجم التاريخي للمصطلحات القرآنية alminbar.al-islam.com/images/books/350.doc